عبدالله باشا السعدون في مواجهة فساد السلطة العثمانية في الأحساء

اتسمت فترة الحكم العثماني الثاني في الأحساء (1288م -1331هـ/1871م – 1913م) بانعدام الأمن وانتشار الفساد الإداري والمالي بين موظفي الدولة العثمانية في هذه المنطقة البعيدة عن السيطرة المركزية للإمبراطورية العثمانية وفي ظل تراجع نفوذ الدولة العثمانية1 .

إذ لم يمضي سوى فترة وجيزة على حملة أحمد مدحت باشا على الأحساء والقطيف والتي قادها محمد نافذ باشا والتي وعدت الاهالي باستتباب الأمن والقضاء على قطاع الطرق واللصوص، حتى عاد الوضع الامني إلى التدهور مجدداً لعدة أسباب منها تناقص عدد الجنود الموجودين في اللواء بسبب فتك الأمراض المستوطنة بالمنطقة مثل الملاريا والحمى والكوليرا، ونقص العناية الصحية2. وكان السبب الثاني هو عدم معرفة السلطات العثمانية بكيفية التعامل مع القبائل البدوية التي تثير المشاكل وتعتبر قطع الطرق مورد رزق لها. والسبب الثالث الرئيسي هو الفساد الإداري الذي راح يضرب بأطنابه في صفوف السلطات المحلية العثمانية ابتداءً من المتصرف وقادة الجند ومأموري السجن ومسئولي الحسابات والضرائب، إذ كان هؤلاء يتقاسمون غلة السرقة والنهب مع قطاع الطرق واللصوص ويتواطؤون معهم.

ولذا فقد توالت الاخفاقات الأمنية واحبط الأهلي من الأداء السيئ للسلطات العثمانية، وبالطبع قاد هذا الوضع إلى تدهور القطاع الاقتصادي والزراعي بالمنطقة ففي شهر جمادى الأولى 1288هـ قام أفراد احدى القبائل بمهاجمة قافلة تجارية قادمة من الهفوف إلى العقير ونهبها وتكررت حوادث متشابهة في شهر رجب 1288هـ. ولم يقتصر الأمر على نهب القوافل بل تعدى ذلك إلى نهب المحاصيل الزراعية وتخريب المزارع التي تعتبر عماد الاقتصاد في واحتي الأحساء والقطيف.

ولم يكن الأمر محصوراً بذلك بل تعداه إلى إرهاب التجار في متاجرهم ومهاجمة السكان في منازلهم وابتزازهم كما قام به المدعو (محسن بن رزين) والذي يعتبر أكبر لصوص الأحساء، إضافة إلى شخص أخر أسمه (النويدس) الذي تخصص في اللصوصية وسرقة المنازل3.

في ظل هذا الوضع الأمني المتردي بزغ نجم احد الشخصيات الأحسائية الوطنية وهو عبدالله باشا السعدون والذي كان له مواقف مشهورة في مكافحة فساد السلطة والقضاء على قطاع الطرق واللصوص وإرسال الخطابات العديدة إلى السلطان العثماني للشكوى من فساد المتصرفين والقادة العسكريين وسوء إدارتهم

في المنطقة4.

ولد عبدالله باشا السعدون في مدينة المبرز عام 1235هـ/1819م، ويرجع أصل أسرة السعدون في الأحساء إلى قبيلة بني خالد المعروفة والتي حكمت الأحساء لفترات متعددة، وهم شيوخ السياسب من بني عقيل بن عامر من قيس عيلان العدنانية.

وقد كان الشيخ عبدالله أكبر من مجرد عمده لحي السياسب، إذ كان لديه قوة عسكرية من أهالي المبرز وكان محط احترام السلطات العثمانية، وهو حاكم مدينة المبرز، كما عرّفه لوريمر في "دليل الخليج العربي": (الشيخ عبدالله بن سعدون أحد سكان حي السياسب بمدينة المبرز وهو حاكم المدينة كلها من سلالة حكامها القدامى ويتصل نسبه إلى بني خالد)5. وذكره الدكتور عبدالله السبيعي بقوله: (عبدالله السعدون حاكم لمنطقته وله علمه الخاص وسنده من القبائل البدوية)6.

في هذه الأثناء، ولضعف الولاة والعساكر العثمانية، فقد ساهم الشيخ عبدالله السعدون في حماية الأحساء والأهالي، وحماية القوافل التجارية المتجهة من العقير إلى الهفوف7، ومتابعة المجرمين والقضاء عليهم، وحفظ الأمن في المنطقة، ومنها ما قام به من مساعدة المتصرف محمد عاكف باشا في القبض على المجرم محسن بن رزين ورفاقه وتنفيذ حكم الاعدام بهم، بالرغم من تساهل المتصرف معهم.

والوثيقة التالية(وثيقة 1) الموجهة من اعيان البلاد إلى السلطات العثمانية تبرز دور عبدالله باشا السعدون في القضاء على المجرم محسن بن رزين وزمرته التي عاثت في البلاد فساداً وإجراماً.

(صورة وثيقة رقم 1)

ولذا فقد ارتفعت مكانته عند السلطات العثمانية العليا، وهذا مما أوغر صدور الحساد والمنتفعين من الفساد عليه، فاعدوا خطه مضادة لتشويه سمعته وأشاعوا انه يقوم بأعمال تنتقص من هيبة الدولة وانه يحرض الأهالي على التمرد والثورة عليها، وذلك لحث السلطات العليا على اصدار فرمانات ضده وطلب تهجيره ونفيه من الأحساء.

وقد أبلغ نائب المتصرف عبدالله باشا السعدون بهذه الخطة، وانتشر الخبر عند الأهالي الذين قاموا بإعداد خطابات عديدة مرسلة للسلطان العثماني دفاعاً عنه والوثيقة التالية (وثيقة 2) هي إحدى هذه الخطابات.

(صورة وثيقة رقم 2)

وقد أثمرت هذه الخطابات عن إفساد خطة الوشاة ومعرفة السلطان العثماني بمكانته وجهوده وأن تقارير الولاة والمتآمرين عنه كانت محض كذب وافتراء. ولذا تم دعوته إلى اسطنبول معززاً مكرماً وأنعم عليه بلقب باشا ورتبة أمير الأمراء8، وأعطي علماً خاصا به. والذي على ضوئه أرسل الأهالي خطابات شكر للدولة على إنصاف الشيخ عبدالله وإكرامه وتقدير مكانته، والوثيقة التالية (وثيقة 3) هي إحدى هذه الخطابات. وكذلك الوثيقة التالية (وثيقة 4) مرسلة من أهالي الأحساء ومصدقة من كل من مختار محلة الشعبة ومختار محلة المقابل ومختار محلة العيوني ومختار محلة السياسب بمدينة المبرز، إلى السلطان عبدالحميد الثاني في هذا الموضوع. كذلك ورد في كتاب "من وثائق الأحساء في الأرشيف العثماني": (عبدالله السعدون: من شيوخ الأحساء وأعيانها في تلك الفترة، عمل رئيسا للأملاك السنية فيها، زار استانبول واستقبل بحفاوة، بناء على دوره في توفير الأمن لمنطقة الأحساء)9.

توفي عبدالله باشا السعدون مطلع عام 1326هـ/ 1908م، مما مكن السلطات الفاسدة في التمادي في فسادها والتآمر مع اللصوص وقطاع الطرق لنهب وتخويف الأهالي إلى درجة أن عَمد الأهالي إلى حراسة بيوتهم وممتلكاتهم بأنفسهم وكانوا يقبضون على اللصوص ويسلمونهم للسلطات والتي تقوم بإطلاق سراحهم بعد فترة وجيزة.

لذا اتفق أهالي الأحساء بجميع فئاتهم وانتماءاتهم المذهبية على التخلص من السلطات العثمانية

والكتابة إلى الملك المؤسس لإنقاذهم من هذا الوضع المتردي، فتم بحمد الله تعالى دخول الملك عبدالعزيز للأحساء وطرد القوات العثمانية فيها سنة 1331هـ/ 1913م واستتب الأمن والأمان في ربوع الأحساء بفضل القيادة الحكيمة للملك عبدالعزيز طيب الله ثراه.

(صورة وثيقة رقم 4)

ونظراً لما تمتع به الشيخ عبدالله باشا السعدون رحمه الله تعالى من شعبية جارفة بين الأهالي نظراً لموافقة الوطنية فقد رثاه العديد من الشعراء ومما قاله الشاعر عبدالرحمن العودة في رثائه عندما علم بوفاته وهو في قطر10:

أوحشت لوطان وأظلم الحسا

غاب بدره واختفى أسفا أسيف

عقب ما نور بنوره للبلاد

انكسف ياحيف ياريف الضعيف

مزبن الجاني مجير لمن لجا

نصرة المظلوم كهف للمخيف

ماحلى ذيك النواظر والحجاج

والمحيا لا لمع بدر شريف

ما كل البرّطيل عمره والحرام

والمكارم خصلته شخص نضيف

لا وطا الفحشا ولا داس الملام

عن جميع الشين والفحشا عفيف

لا جنا الجاني وجا عنده ذليل

يرحمه ويقول وش سوى الضعيف

لو زجر وأرعد سحابه ما يبل

داخلي الصوف من تحت الشني

لا رأيت الزجر عنده والوعيد

فانت آمن منه عدله ما يخيف

عايزن الشيخ في هذا الزمان

فايق الأقران جملة والصنيف

بالكرم موصوف بابه لم يزل

حاميا ورده على هذا يكيف

ما حد شرع لبابه بالحسا

غير بوسعدون جاعل له مضيف

مدهل للضيف بوسعدون دون

كل سكان الحسا وأهل القطيف

هـــو صـحيب لـي حـبيب لـي لـبيب

لا رآنـــي مـــن بـعـيـد لـــي يـقـيـف

آه وا قـلـبي غـــدى عـقـبه هـشـيم

مـثل عـشب هـيضه هيف المصيف

مـــا رأت عـيـــني ذكـاتـه فـي الأنـام

عـــارف الـــعـراف لـلـعـارف عـــريـف

راح لـلـسـلطان هـــديـــه والـخـطوط

وأعـجـب الـسلطان هـديه لـلتحيف

وأغـمره بـاحسان كـل شهر معاش

أمـيـه وعـشـرين مـرصـوفه رصـيف

مـــا حـــد ســوى سـواتـه بـالـعزوم

طـــوع الـعـدوان طـاعـو لـه عـسيف

مـــا رمـــى راســه لـحـكام الـزمـان

مـــرد مـنـهم ظـاهـر مـــا لـه وصـيف

قاسيا راسه وفي راسه صعوب

للصعب صعب وللضعيفين ريف

ما حد حاله ابحالات الحياة

كلما كادوه نجاه اللطيف

له يبرمون المكايد كل حين

وينقض المبروم بالراي المنيف

لين ربه وصله دار الخلود

يرحمه باللطف حيثنه لطيف

رحمة ا تـوصله دوم الدوام

في جنان الخلد بستانه ينيف

راح وأبقى له ثنا مثل السراج

يشتعل في الناس لو غطوه شيف

ارتحل من عقب ذا فوق الهجين

صيعري كالف حاله نحيف

مدخر عندي إلي وقت اللزوم

مثل هذا اليوم ما حاجه رديف

ما عليه إلا السفايف والخروج

أو زهابه يوم أو لبس خفيف

راكبه لازال في قلبه سرور

من حسن مشاه والدل الظريف

كن حالوب المطر حذف الحصا

من خلاف الخف أو دمع الدنيف

ايتوحا راكبه صوت غريب

طارق لأذنيه من حمو الوصيف

من قطر تنشر الي بان الصباح

والظهر تلفي على شيخ عفيف

بالتخلف انص مخلوف الكرام

خص به سعدون يا نعم الخليف

وانـــت واقـــف مـــد لـــه مـــني كـــتاب

قـــل عزى وتسليم من قلب صخيف

الـــعـــزى لـــي مـــنـــك ومـــنـــي الـــعـــزى

بـــاغـــي فـــيـــك الـــخـــلـــف عـــقـــب الـــولـــيـــف

وا ا في السياسب بالعموم

في مساواة القوي ويا الضعيف

هم جناح الطير في يوم الهداد

لا اختلف ريشه يعوقه بالرفيف

وللحموله التفت راع العضود

لا صفوا لك فانت للأعداء تخيف

والختم صلوا على سيد الورى

مالعت ورقا على فرقا الوليف